

مادة: نقد قء / المحاضرة الثالثة والرابعة د / إيمان عبد السميع

حُجَّة غزارة البديهة :

البديهة هي «أَوَّلُ كُلِّ شَيْءٍ وما يَفْجَأُ مِنْهُ»؛ لذلك يُقال «بَدَّهَهُ أَمْرٌ بِبَدَّهَهُ بَدَّهًا فَجَاءَهُ» ، وباده معناه باغت « وفلانٌ صاحبٌ بديهةٍ يُصِيبُ الرَّأْيَ في أَوَّلِ ما يُفاجَأُ به» ، وقال ابن الأعرابي : « بَدَّهَ الرَّجُلُ إذا أَجاب جوابًا سديدًا على البديهة» ، ومن كل ما سبق نَخْلُصُ أَنَّ البديهة تعني قول الشعر بغتة دون إعداد سابق له.

ومن البديهة ما رُوِيَ عن أَبِي تمام حين أنشد أحمد بن المعتصم بحضرة الكندي - وهو فيلسوف العرب - قوله :

إِقْدَامُ عَمْرٍو ، فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمٍ أَحْنَفٍ ، فِي ذِكَاةِ إِيَّاسٍ
فقال له الكندي : « ما صنعت شيئًا ، شَبَّهْتَ ابنَ أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين بصعاليك العرب ، وَمَنْ هؤلاء الذين ذكرت ؟ وما قدرهم ؟ فأطرق أبو تمام يسيرًا ، وقال :

لا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونِهِ مَثَلًا شَرُودًا فِي النَّدى وَالنَّاسِ
فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَّ لِئُورِهِ مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ

... وقد قيل : إن الكندي لما خرج أبو تمام قال : هذا الفتى قليل العمر؛ لأنه ينحت من قلبه ، وسيموت قريبًا ، فكان كذلك»^(١).

وغزارة البديهة صفة لفحول الشعراء ؛ لأنها تنم عن تصرُّف الشاعر في غير غرض ، ومعالجته لموضوعات كثيرة ، ومن ثَمَّ يُحَكَّمُ له بالتقدُّم ، ويحوز قَصَبَ السَّبْقِ ، بشرط ألا يكون في غرض أنفذ منه في غيره ، بل يبرع في الموضوعات جميعها.

وإذا تأملنا عنصر الغزارة في البديهة عند الجرجاني ، وجدنا أن هذا العنصر ليس وصفًا للشعر بقدر ما هو وصف للملكة الشعرية للشاعر، فهي تعني تدفُّق وانهمار الملكة الشاعرية ؛ مما يشير إلى كثرة الموضوعات وتعدُّدها لدى الشاعر، وليست

البديهة هي الارتجال ؛ « لأن البديهة فيها الفكرة والتأييد ، والارتجال ما كان انهماجاً وتدفقاً لا يتوقف فيه قائله»، فالبديهة تقوم على الفكر ولكن دون إطالة ، أما الارتجال فمأخوذ من السهولة والانصباب.

بيد أن القاضي الجرجاني إذا كان يقصد بغزارة الكثرة ، فإن الكثرة وحدها لا تكفي لِتُكَوِّنَ حُجَّةً يُعَايَرُ وَيُقَدَّمُ على ضوءها الشاعر، فقد ذهب ابن سلام إلى أن الجودة تكفي لتكون عياراً تفاضلياً داخل الطبقة الواحدة ، إلا أن الكثرة لا تكفي وحدها ، وإنما لا بد لها من الجودة ، فالأعشى كان أكثر طبقة «عروضاً ، وأذهبهم في فنون الشعر، وأكثرهم طويلة جيدة ، وأكثرهم مدحاً وهجاءً ، وفخراً ووصفاً» ، وهذا كله لم يشفع له في أن يتقدم على أهل طبقة ؛ لأنه « لم يكن له مع ذلك بيت نادر على أفواه الناس كأبيات أصحابه».

وأعتقد أن القاضي الجرجاني كان يقصد بغزارة البديهة قوة الطبع ، فالشاعر الذي تفيض قريحته وتنثال عليه الألفاظ انشياً هو الشاعر المطبوع ، والمطبوع عند العرب هو الأصل ، سواء أريد به الشاعر أو شعره ، « فالشاعر الحاذق المبرز إذا صَنَعَ على البديهة قُنْعَ منه بالعفو اللين ، والنثر التافه ؛ لما فيها من المشقة وهو في الارتجال أعذر».

وغزارة البديهة إنما هي دليل على تَمَكُّن الشاعر من صناعته ، وقوة حافظته ، وطول دُرْبَتِهِ وخبرته بأنماط من الصور والتعبير عن الأغراض ، وقد كانت العرب تُسَلِّمُ قَصَبَ السبق للشاعر الذي « وصف فأصاب ، وشَبَّهَ فقارب ، وبَدَّه فأعزر»، فإذا أصاب الشاعر في التعبير عن الغرض الذي يتناوله ، وقارب في التشبيه بحيث يكون اشتراك الطرفين في الصفات أكثر من انفرادهما فيها ، وكان قوي الطبع مُتَمَكِّن من الشعر حاز قَصَبَ السبق عند العرب.

ز- حُجَّةُ كَثْرَةِ الْأَمْثَالِ السَّائِرَةِ وَالْأَبْيَاتِ الشَّارِدَةِ :

احتفت البيئة العربية بالأبيات السائرة المفردة ، وكثيراً ما كان النقاد يتساءلون

عن أمدح بيت ، وأغزل بيت وأهجى بيت ؛ وما ذاك إلا لأنهم كانوا يُعَوَّلون عليها في الاستشهاد والتمثّل ، لسهولة حفظها ؛ وبذلك يكون البيت السائر هو الحُجّة وعليه المدار في تقييم الشعراء ، ما دام الحفظ لا يسمح بتصور القصيدة كاملة⁽¹⁾، فالأبيات الشاردة أمثال سائرة ومعانٍ مستوفاة « لم تجد في أخواتها ، وجارات جنبها ما يصلح لمصاحبتها »⁽²⁾ ، فالبيت الشارد متفرد ومتميز ؛ لذا فهو يفوق ما قبله ، وما بعده من أبيات شعرية.

ولا تعني كثرة الأمثال السائرة والأبيات الشاردة أن يُسْرِفَ الشاعر في طلبها ، وإنما عليه ألا يتجاوز الحد في طلبها ؛ وذلك لأن « القصيدة إذا كانت كلّها أمثالا لم تُسِرْ ، ولم تَجِرْ مجرى النواذر »⁽³⁾، وبهذا يُمَثِّلُ الإكثار من الأمثال عائقا في سيرورتها ، كذا خلو الشعر منها يُعَدُّ هو الآخر عائقا يحول دون سيرورتها وانتشارها ؛ فالأعشى على علو كعبه في الشعر « لم يكن له مع ذلك بيت نادر على أفواه الناس كأبيات أصحابه »⁽⁴⁾، وقد وصفت العرب البيت السائر الذي يتناقله الناس بالنادر، ومن ثمّ حالت الأبيات السائرة دون تقدّم الأعشى على أهل طبقته عند ابن سلام ، الذي جعله في المرتبة الرابعة بعد امرئ القيس ، والنابعة الذبياني ، وزهير بن أبي سلمى ، ولعلّ لهذا التأخّر علاقة وطيدة بما عُرف عن الأعشى من كثرة التضمين في شعره؛ مما يعوق استقلال أبياته ، وهذه ملاحظة صائبة من ابن سلام ، وهي تؤكد ارتباط مفهوم البيت المتفرد عنده بمبدأ استقلال البيت ، وهذا ما نصّ عليه في تعريفه للبيت المقلّد بأنه : «البيت المُسْتَغْنِي بنفسه ، المشهور الذي يُضرب به المثل»، ولعلّ ذلك هو سر نفي الأصمعي صفة الفحولة عن الأعشى⁽⁵⁾.

كانت الأبيات السائرة حُجّة يُحْتَكَمُ إليها في تقويم الشعر، فقد روى ابن سلام قائلًا : « قال لي معاوية بن أبي عمرو بن العلاء : أي البيتين عندك أجود ؟ قول جرير :

وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بُطُونٌ رَاحِ

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا

أم قول الأخطل :

شُمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَخْلَامًا إِذَا قَدَرُوا

فقلت : بيت جرير أحلى وأسير، وبيت الأخطل أجزل وأوزنُ».

فشعر جرير سهل ، وبيته موجز وخفيف ؛ لذلك كُتِبَ له السيرورة والانتشار أكثر من بيت الأخطل الذي اتسم بالجزالة والرزانة.

فالبيت السائر يكتب له البقاء والانتشار أكثر من الشعر القوي الجزل ، حتى ولو كان معناه مطروقاً من قبل ، ومن ذلك ما فعله سلم الخاسر حين أخذ بيت أستاذه بشار فَجَوَّدَهُ وَخَفَّفَ مِنْ وَزْنِهِ حَتَّى سَارَ، وخمل بيت بشار؛ « قال أبو معاذ النميري رواية بشار : قال بشار وقال فيها :

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ وَفَارَ بِالطَّيِّبَاتِ الْفَاتِكُ اللَّهْجُ
فَعَرَفْتَهُ أَنَّ سَلَمًا قَدْ قَالَ :

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ غَمًّا وَفَارَ بِاللَّدَّةِ الْجَسُورُ

فلما سمع بشار هذا البيت قال : سار والله بيتُ سلم وخمل بيتنا ! قال : وكان كذلك ، لهج الناس ببيت سلم ، ولم يُنشِد بيت بشار أحد».

فلئن كان لبشار فضل السبق إلى المعنى ، فإن سَلَمًا قد فاز بسيرورة بيته بعد أن جَوَّدَ لفظه وَخَفَّفَ وَزْنَهُ ، وسيرورة البيت لا تتنافى مع جودته الفنية ، فالشعر إذا كان سلساً وسهلاً ، بلا تعقيد ولا إسفاف ، كان صاحبه مُبْدِعًا وصار شعره الأقرب إلى الناس، « فكم من بيت شعر قد سار، وأجودُ منه مقيم في بطون الدفاتر، لا تزيدهُ الأيام إلا خمولاً ، كما لا تزيدهُ الذي دونه إلا شهرةً ورفعةً ، وكم من مثل قد طار به الحظُّ حتَّى عَرَفَتْهُ الْإِمَاءُ وَرَوَاهُ الصَّبِيانُ وَالنِّسَاءُ».

وقد عَلَّلَ الجاحظ هذه الظاهرة بقوله : « والعامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما ، وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالاً ، وتَدَعُ ما هو أظهر وأكثر؛ ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ولم يَسِرْ ما هو أجودُ منه».

والبيت السائر يتحامى الشعراء الأخذ منه أو النقل عنه ؛ لأن سرقة يسهل كشفها كما جاء في وصف عنبرة للذباب ؛ إذ وَصَفَهُ فَأَجَادَ صِفَتَهُ ، فابتعد عن وصفه

جميع الشعراء ؛ وبذا يكون عنتره متفردًا في وصفه.

وقد وُفِّقَ القاضي الجرجاني في وضع الأمثال السائرة والأبيات الشاردة بعد غزارة البديهة ؛ لأن غزارة البديهة تعني طرق ومعالجة الشاعر لموضوعات شتى ، وقد تؤدي هذه الكثرة إلى الأبيات الشاردة التي قد تجيء في ثنايا الموضوعات التي يطرقها.

وقد عرض القاضي الجرجاني لأمثال المتنبي السائرة ، وأبياته الشاردة التي تربو على المائة ؛ أكثرها مفردة ، ويُقَلُّ فيها البيتان ، ولم يتجاوز إلى ثلاثة أبيات إلا في أربعة مواضع، واستشهد بأربعة أبيات شوارد في موضعين.

ويقول مبررًا عن اقتطاع هذه الأبيات من سياق القصيدة «التقطنا من عروض الديوان أبياتًا لم نذهب - إن شاء الله - في أكثرها عن جهة الإصابة ، فإن وقع في خلالها البيت والبيتان فلأنَّ الكلام معقودٌ به ، والمعنى لا يتم بدونه ، وما يتقدمه وما يليه مفتقرٌ إليه ، أو لغرض لا تعظم الفائدة إلا بذكره» ، ويلاحظ أن هذه الأبيات الأفراد لا ترتبط بغرض محدد ، فنجدها في باب الغزل ، والمدح ، والحكمة ، والفخر بالنفس ، وهي أغراض تفرّد المتنبي بالإجادة فيها ، فكان له منها هذه الأفراد.

ووفقًا للمنهج الذي اتخذه القاضي الجرجاني في دفاعه عن المتنبي ، نراه يلجأ إلى المقاصّة بعد قياس الأشباه والنظائر، وليست المقاصّة عنده واحد إلى واحد ، وإنما أن يأخذ بكل سيئة عشر حسنات متخذًا من أمثال المتنبي السائرة ، وأبياته الشاردة حجة أخذ بها العرب قديمًا ، فالسيئة عند الجرجاني يحوها عشر حسنات ، والنتائج بعد هذه المقاصّة القضائية سيقودك إلى التسليم حتمًا بفضائل المتنبي ؛ وذلك لأنك « لا تجد لأبي الطيب قصيدة تخلو من أبيات تُختار، ومعانٍ تُستفاد ، وألفاظٍ تُروى وتُعذّب ، وإبداع يُدُلُّ على الفطنة والذكاء ، وتصرف لا يصدر إلا عن غزارة واقتدار».

هذه هي الحُجَج التي يقوم عليها عمود الشعر، والتي حاول القاضي الجرجاني ترتيبها وحصرها في ضوء ما قاله المتقدمون من النقاد أمثال : الجاحظ ، وابن طباطبا ، وقدامة ، والآمدي ، بيد أن إضافته ليست محصورة فقط في جمع ما كان متفرقًا مبعوثًا من مقومات عمود الشعر، وإنما فيما قام به من « ضبط نظري لتلك المقومات والتأليف

بينها على نحو أظهرها في صورة المفاهيم المجردة التي يجمعها رباط ناظم يجعل إمكانية فهم المفهوم الواحد موقوفة على فهم غيره ، فلا يستوعب الجزء إلا من خلال الكل الذي وسمه القاضي الجرجاني بـ (نظام القريض) .»

فكل عنصر من عناصر عمود الشعر مرتبط على نحو ما مع غيره من العناصر الأخرى ؛ فشرف المعنى وصحته مرتبط على نحو ما بعنصر الإصابة في الوصف ، كما أن المقاربة في التشبيه يردنا إلى عنصر الإصابة في الوصف ؛ فمقاربة الحقائق هي السبيل إلى الإصابة في الوصف ، وعنصر المعنى المتمثلين في الشرف والصحة مرتبطان بعنصري اللفظ المتمثلين في الجزالة والاستقامة ، كما أن غزارة البديهة ترتبط بالألفاظ الجزلة التي تنثال على الشاعر انثيالاً ، كما ترتبط سوائر الأمثال وشواردها بمفهوم شرف المعنى ، إن كل عنصر من عناصر عمود الشعر مرتبط وآخذ برقاب غيره من العناصر .

وقد استكمل المرزوقي (ت ٤٢١ هـ) جهود سابقه في تحديد ما يُراد بعمود الشعر من حيث أركانه ، وبيان عناصره ، ومعيار كل عنصر من هذه العناصر ، ففي مقدمته لحماسة أبي تمام جَمَعَ الأسس والعناصر التي استفادها عن السابقين ولا سيما القاضي الجرجاني ، وأضاف إليها ما رآه مُتَمِّمًا لها ، وقد لَخَّص عناصر عمود الشعر بقوله : « إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والإصابة في الوصف - ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال ، وشوارد الأبيات - والمقاربة في التشبيه ، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما - فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر ، ولكل باب منها معيار .»

هذا هو عمود الشعر في صورته المكتملة ، كما حدّده المرزوقي ، وهو خلاصة الآراء النقدية في القرن الرابع كما يرى إحسان عباس ، وهو عنده إن « لم يكن الصيغة التي اختارها شعراء العربية ، (فإنه) الصورة التي اتفق عليها النقاد .»